مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٨) العدد (٦)
الإصدار الثلاثون
(١-١٦) ٢٠٢٥

الصداقة بين الفلسفة والتجربة الذّاتية في كتاب الصّداقة والصّديق لأبي حيان التوحيدي

سمر بريك

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ ديسمبر ٢٠٢٥م

المقدمة

حين ضاقت الدّنيا بأبي حيان، جاع حتى صار الجوع له صديقًا، وخيب الوزراء أمله فتركوه للوحدة، حينها كتب عن الصّداقة ليس بوصفها فكرة فلسفيّة، بل ملجأ يعني أنا موجود، وصوتًا ذاتيًا يبحث عن سند.

من هنا تأتي أهميّة البحث، إذ يسعى إلى دراسة كتاب (الصّداقة والصّديق) لأبي حيّان التّوحيدي الّذي جمع بين الفكر الفلسفي اليوناني في عرضه لفكر أفلاطون في محاوراته، وآراء أرسطو في كتابه (الأخلاق النيقوماخيّة)، وبين الفكر الإسلامي عند الفارابي وابن مسكويه اللّذان يعدان الصّداقة أساسا من أسس الفضائل وتهذيب النّفس، وليكشف تأثر التّجربة الذّاتيّة في فلسفة التّوحيدي تلك الفلسفة الّتي تلتقي مع فلسفة المذهب الوجداني الّذي ظهر في العصر الحديث، ومقارنة أراء التّوحيدي مع أولئك الفلاسفة ومنهم كيركغارد الّذي تتوافق آراءه مع التوحيدي في تمجيد التّجربة الذّاتيّة.

في هذا الإطار يأتي كتاب الصّداقة والصّديق والّذي يعدّ من أهمّ النّصوص التّراثيّة في القرن الرّابع لأنّه يتجاوز التّنظير الفلسفي لفكرة الصّداقة كما عرضتها الفلسفة التّقليديّة إلى دعوة صريحة للمزج بين الفكر والتّجربة الذّاتيّة، فالكتاب يمكن اعتباره سيرة ذاتيّة وجدانيّة تبين خيبات أمل الكاتب وحدته اغترابه، وتبين حياة الفلاسفة في عصر اتسم بالاضطرابات الاجتماعيّة والسّياسيّة.

*** سؤال البحث**

هل قدم التّوحيدي في كتابه تصورًا فلسفيًّا عقليًّا لفكرة الصّداقة، أم أنّه حوّل الصّديق إلى مرآة لحياته وتجربته الشّخصيّة؟

هذا السّؤال يظهر أهداف البحث: –

١- تتبع أراء التّوحيدي الفلسفيّة ومقارنتها بآراء أفلاطون وأرسطو والفارابي.

٢- الكشف عن تجربة التّوحيدي الذّاتيّة والّتي أضفت على الكتاب طابع التّجربة الذّاتيّة المقنعة.

٣- يظهر البحث كيف امتزج البعد الفلسفي بالهمّ الشّخصي ليخلق تصوراً جديدا للصّداقة.

*** فرضية البحث**

تقوم فرضيّة هذا البحث على اعتبار كتاب الصّداقة والصّديق ليس مجرد تجميع لأقوال الفلاسفة والفقهاء في معنى الصّداقة، بل هو بناء سردي فلسفي يبين معرفة التّوحيدي بالفلسفة الوجدانيّة في بعدها الأخلاقي والوجودي، ويكشف الكتاب عن ملامح من حياته وتجاربه الشّخصيّة، وبذلك يمكن دراسة الكتاب كنّصّ متداخل يجمع بين الفلسفة والسّيرة الذّاتيّة.

الكلمات المفتاحية: سيرة ذاتيّة، الصّداقة والصّديق، التّجربة الذّاتيّة، الفلسفة والأدب.

Abu Hayyan al-Tawhidi wrote “Friendship and the Friend” during a time of loneliness and disappointment, turning his suffering into a reflection on human connection. His view of friendship was not purely philosophical but deeply personal — a means to affirm his existence and seek emotional refuge.

The study explores how al-Tawhidi combined Greek philosophical ideas, especially those of Plato and Aristotle, with Islamic thought represented by al-Farabi and Ibn Miskawayh, who viewed friendship as essential to moral and spiritual growth.

The research highlights how al-Tawhidi’s own experiences shaped his philosophical outlook, linking his work to modern existentialist thought, particularly that of Kierkegaard, who also valued subjective experience.

Unlike traditional philosophical treatises, “Friendship and the Friend” blends reflection and autobiography, revealing al-Tawhidi’s isolation and the intellectual climate of his time.

The key question driving the study is whether al-Tawhidi presented a rational theory of friendship or used the concept of the “friend” as a mirror of his own life.

The research aims to:-

1- Compare al-Tawhidi’s ideas with classical philosophers.

2- Expose the autobiographical dimension of the text.

3- Show how personal experience transformed his understanding of friendship.

The central hypothesis is that the book is not a mere collection of philosophical opinions but a narrative that fuses ethical philosophy with personal experience, making it both a philosophical and existential self-portrait.

*** الإطار النّظري لمفهوم الصّداقة**

موضوع الصّداقة من أهمّ المواضيع الّتي شغلت الفكر الإنساني على مرّ العصور ومهما اختلفت الثّقافات فالصّداقة هي رابط المودّة والمحبّة والثّقة لها دلالاتها الأخلاقيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة خاصة حين تتجاوز المصلحة الشّخصيّة.

في هذا الفصل عرض لأبرز التّصوّرات الفلسفيّة والفكريّة بدءًا بالفلسفة اليونانيّة، مرورًا بالفلسفة الإسلاميّة حتى نصل للفلسفات الحديثة كالوجوديّة والوجدانيّة.

*** الصّداقة في الفلسفة اليونانيّة**

١- أفلاطون

ربط أفلاطون بين الصّداقة والفلسفة بين الحبّ والفلسفة، فالعلاقات الإنسانيّة ترتقي بالإنسان إلى قمة الجمال الرّوحي والمعرفي "في داخل كلّ إنسان قوتان: شهوة تنزع إلى اللّذة، وعقل يطلب الخير. فإذا غلبت القوة الثّانية، كان الحبّ باعثًا إلى الفضيلة والصّداقة الحقّة" – (أفلاطون، فيدروس، ترجمة يوسف كرم، صـــ ٤٧).

ويقول فؤاد زكريا: "الحبّ عند أفلاطون ليس مجرد انفعال عاطفي، وإنّما هو قوة روحيّة تدفع النّفس نحو الحقّ والخير والجمال، وتتحوّل الصّداقة في هذا الإطار إلى رابطة تتجاوز المنفعة إلى المشاركة في طلب الحقيقة" (زكريا، التّفكير الفلسفي عند اليونان، صـــ٢١٠).

في فلسفة أفلاطون الصّداقة فضيلة تحتاج لأناس متشابهين بمحبّتهم، بهذا يتجاوز مفهوم الصّداقة المنفعة الشّخصيّة فيرتقي الإنسان للخير والجمال المطلق، "الصّديق إنسان هو أنت، إلا أنّه بشخص غيرك" (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٦١).

منح أفلاطون مفهوم الصّداقة بعدا مثاليًّا يتجاوز حدود التّجربة اليوميّة إلى مرتبة فلسفيّة عاليّة، ولكنّ الحياني يدرك أنّ رأي أفلاطون بعيد عن زمانه، المفارقة بينهما أفلاطون يرى الصّديق هو أنت بينما التّوحيدي لا يوجد صديق وبالتّالي هو في قطيعة روحيّة مع فضيلة أفلاطون.

٢- أرسطو

"لا أحد يختار أن يعيش بلا أصدقاء، حتى لو كان له جميع الخيارات الأخرى" – (أرسطو، الأخلاق إلى نيقوماخوس، صـــ ٢١٤). يؤكد أرسطو أنّ الصّداقة ليست ترفيها، بل حاجة أساسيّة في الحياة ويربطها بالفضيلة والأخلاق وهي ليست مجرد منفعة أو متعة، كما أنّه يميز بين ثلاثة أنواع للصّداقة " صداقة تقوم على المنفعة، وصداقة تقوم على اللّذة، وصداقة تقوم على الخير. والأخيرة هي الصّداقة الكاملة، لأنها تجمع بين الفضل والمتعة والمنفعة، ولا تقوم إلا بين الأخيار المتشابهين في الفضيلة." – (أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة لطفي السّيد، صـــ ٢٢٤).

وحين يربط أرسطو الصّداقة بالسّعادة، يقول: " يقولون: إنّ السّعادة تكفي ذاتها بذاتها، وهذا صحيح، ولكنّها لا تنال إلا بالعيش في صحبة الأصدقاء، فالصّديق ضروري حتى يعيش الإنسان حياة سعيدة." – (أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة أحمد لطفي السيد، صـــ ٢٣١).

يعد تعريف أرسطو للصّداقة مرجعا أساسيًا لدى الفلاسفة المسلمين، لكنّ التّوحيدي رغم عدم تعليقه بشكل

مباشر على آراء أرسطو إلا أنّ صوته يهمس بين السّطور "لا أجد أخا...أثق إليه وأشكي إليه" – (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١٠).

التّوحيدي يعيش في مفارقة محزنة لأنّه يدرك معنى الصّداقة ويعشق تلك الأفكار في الكتب، ولكنّه يشعر بالخذلان، فلا الفضيلة موجودة ولا القيم ولا الثّقة، وحين يتأمل فكرة أرسطو السّرياليّة بالنّسبة إليه فكأنّه يرثي حاله.

*** الصّداقة في الفلسفة الإسلاميّة**

١- الفارابي

في لقاء بين الفلسفة اليونانيّة والفلسفة الإسلاميّة يتضح مدى تأثر الفارابي(ت٩٥٠م) بأرسطو في كتابه (الأخلاق النيقوماخيّة) وأفلاطون في (الجمهوريّة)، لكنّه أعاد صياغة أفكارهم في سياق إسلامي مدني. يقول الفارابي: "الصّداقة بين النّاس تقوم على المشاركة في الفضيلة والاشتراك في العمل الخير وهي شرط في المدينة الفاضلة، إذ لا تتصوّر الحياة سعيدة بلا أصدقاء يتعاونون على الكمال." – (الفارابي، آراء المدينة الفاضلة، صـــ ١٢٣)، ويقول: "الصّداقة الحقيقيّة لا تكون إلا بين الأخيار، لأنّ هؤلاء وحدهم يمكن أن يشتركوا في غاية واحدة، هي فضيلة الكمال." – (الفارابي، تحصيل السّعادة، صـــ٤٥).

أبو نصر الفارابي الّذي يرى" الصّديق هو الّذي يعين على نيل الكمالات لا العيش فقط" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق/ صـــ ١٠٢.) يشارك رأي أفلاطون وأرسطو في نظرته للصّديق المشارك في المنفعة واللّذة ويساعد على الوصول إلى الكمال الإنساني وبالتّالي يصل للسّعادة والسّعادة غاية الإنسان في هذه الحياة، ولكن صوت التّوحيدي المختبئ بين سطور الكتاب يهمس: "هذي الأقاويل تحتمل وتقبل، ولكن أي عين رأت، وأي نفس وجدت." (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١٠٦.)

أمام تمسك الفلاسفة بالمثل العليا، يقول: "قد كثر النّاس من ذكر الصّديق ووصفه وتفننوا في نعمه وتشدّقوا في تمثيله...حتى إذا جئت إلى التّطبيق لم تجد إلّا الوحشة والقلى والانفراد." (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١٠٥)

مفارقة أخرى بين ما يقرأه التّوحيدي في الكتب وبين الواقع توضح المرارة الّتي عاشها والمفارقات الكبيرة بين الفلسفة والواقع.

رغم أنّ التّوحيدي لم يجادل الفارابي في نظرته للصّداقة إلّا أنّ شكواه وعزلته ونفوره من النّاس تعكس فلسفته الخاصة المبنيّة على تجارب القهر والخذلان، فهو يرى الصّداقة مجرد حلم.

فكرة إيجاد صديق تخلق عنده نوعا من التّوتر النّفسي، لأنّ المثاليّة الفلسفيّة تصطدم بجدار الواقع والشّعور الوجداني الواعي لميزات الصّداقة والتّوحيدي لا يؤمن بالصّداقة أنّها مجرد مفهوم عقلي محايد، بل عاطفة مرتبطة بمزاجيّه الأفراد وهي تجربة ذاتيّة مستمرة.

٢- مسكويه (ت ٤٢١ هـــ)

تأثر مسكويه بالفلسفة اليونانيّة وخلاصة قول أرسطو –لا أحد يعيش بلا صديق–، ويظهر تأثره حين يقول: "الصّداقة تنقسم ثلاثة أقسام: صداقة على منفعة، وصداقة على اللّذة، وصداقة على الخير، فهي أثبتها وأدومها لأنّها قائمة على

الفضيلة وهي قليلة الوجود" (مسكويه، تهذيب الأخلاق، صـــ١٩٩).

وقد شدّد على أنّ الإنسان مدني بطبعه ولا يمكنه التّخلي عن الأصدقاء.

لكنّ الحياني الّذي تناول موضوع الصّداقة وكان يرى فيها " شفاء للصّدر، وترويحًا عن القلب وتفريجًا عن الهمّ" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١٢). يهزم أمام واقعه ويخذل حين يكشف خبايا النّاس فتكشف كلماته مرارة تجاربه، فيقول: "ما أكثر من يظهر لك المودّة من النّاس، حتى إذا اختبرته وامتحنته لم تجد معه وفاء" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ٤٤). وهكذا يتحول التّنظير الفلسفي إلى شهادة شخصيّة تكشف عن سيرته الذّاتيّة ومعاناته.

*** الدّلالة**

هنا يتضح أنّ أرسطو وضع الأساس الفلسفي النّظري لفكرة الصّداقة، أما مسكويه فقد استوعب الفكرة وصاغها في قالب أخلاقي إسلامي عقلاني، أمّا التّوحيدي نقلها من مفهوم فلسفي كوني عند أرسطو، ومن مفهوم أخلاقي تربوي يعين صاحبه على تهذيب النّفس عند مسكويه إلى فكر فلسفي وجودي.

*** الصّداقة في الفلسفة الوجدانيّة الحديثة**

برزت في الفلسفة الحديثة الفلسفة الرومنطيقيّة في القرن التّاسع عشر في أوروبا وبعدها ظهرت في القرن العشرين الفلسفة الوجوديّة والّتي وافقت نظرة التّوحيدي للصّداقة على أنّها تعبير عن الذّات والوجود وتوافقه في الشّعور بالآخر والوحدة، فالصّداقة بالنّسبة له تقاس بعمق الخذلان وليس بقواعد الفكر.

وقد قال الفيلسوف الألماني سورين كيركغارد في ذلك "الإنسان لا يدرك الحقيقة بالعقل وحده، بل يعيشها من خلال التّجربة الذّاتيّة والقلق والانفعال" (بدوي، كريغارد فيلسوف القلق والحرية، صـــ ١٢٣).

هنا تلتقي فلسفة كيركغارد والّذي يمجد التّجربة الذّاتيّة مع آراء التّوحيدي في كتابه (الصّداقة والصّديق) فكلاهما يعطيان الأولويّة لواقع الإنسان ومن خلال التّجارب الذّاتية تخلق الفكرة والقيمة. والتّوحيدي بجعله التّجربة الذّاتيّة هي محور فكره ومعتقداته يعتبر أوّل من تناول الفلسفة الوجدانيّة، وهذا ما يجعل من التّوحيدي صوتا سبق نظريات الفلسفة الحديثة في فهم الإنسان من خلال العلاقة بين الذّات والمحيط، إذ يقول: "من لم يذق مرارة الإخوان لم يظفر بحلاوة الخلان" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٦٧)، فالاختبار الحقيقي للصّداقة هو التّجربة ومعاملة النّاس، وتظهر مرارته ،بقوله: "وقد كنت أظنّ أن أحببت أحببت، وإن صادقت صادقت، فإذا أهوى ولا أهوى، وأصادق ولا أصادق" (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٦٣)، ويقول: "وما أكثر من يظهر لك الصّداقة حتى إذا اختبرته وجدته عدوًا في ثوب صديق وغريمًا في لباس قريب" (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ٦٠)

من خلال هذا الاتجاه اكتسبت الصّداقة بعدا وجوديا يجعلها ملجأ لكل من يبحث عن ذاته ويرغب أن يكون لوجوده معنى. وإذ بصوت التوحيدي القادم من سفر

الزّمان يكشف عن الفلسفة الوجدانيّة في تقاطع فكري مع فلاسفة العصر الحديث فمع أنّه لم يضع مصطلحات هذه الفلسفة إلا أن أفكاره تدلّ على كونه فيلسوفا وجوديا قبل الوجوديّة في تعامله مع القيم و الأخلاق وفي حديثه عن الصّداقة في الذّات الإنسانيّة فهو يطارد حقيقتها ويكشف زيفها كلّما اصطدمت بواقع ما، وينقد حال النّاس في تقلباتهم وتعاملاتهم مع الآخر وبهذا يلتقي مع كيركيارد وإن اختلفت اللّغة بينهما والمفاهيم إلا أن فكرهما يتحد حين يبحثان عن الذّات الانسانيّة في قلب التّجربة في محاولة لفهمها والتّعامل معها سواء كانت قيمة كالصّداقة أو فكرة ما أو إيمان معين.

*** التّوحيدي وتجربة حياته**

عند قراءة كتاب الصّداقة والصّديق يدرك القارئ أنّه أمام تجربة حياة أبي حيّان التوحيدي (٣١٠= ٤١٤ ه)، فالكتاب يتناول سلسلة من خيبات الأمل الّتي رافقت التّوحيدي في مسيرته الحياتيّة.

لم ينقل الكاتب آراء الفلاسفة فقط، بل كان يبحث عن الصّداقة عبر ظلال تجاربه ليشعر بالأمان الّذي فقده حين خسر أمه ويستمتع بالأصحاب الّذين لم يلعب معهم في طفولته يبحث عن السّند ليدعمه في أوقات الحاجة. هذا الفصل يتناول أهمّ المحطات في حياة التّوحيدي والّتي كان لها بالغ الأثر على فلسفته

١- المرحلة الأولى: الطّفولة وفقد الأم

نشأ التّوحيدي يتيم الأم غارقا في شعور الغربة والحرمان، وعنه قال الطّرابيشي: " لقد ولد ليكون منسيا ويعيش على هامش المدينة والثّقافة والسّياسة." (الطّرابيشي، هرطقات، صـــ ٤٦).

كما أنّه لم يلق رعاية جيدة من المسؤولة عنه وهي عمته، وقد نشأ في بيت مليء بالصراخ.

هذا الحرمان من دفء الأسرة وحنان الأم جعله يلهث في طلب الأمان، ولأنّه يعتبر العائلة وطن الطّفل الأوّل ومرساة نجاته فقد بحث في الصّديق عمن يعوضه ذاك النّقص، يقول: "الصّديق وطن صغير" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٦٥)، ويردد:

"أخاك أخاك إنّ من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير حسام" (نفس المصدر، صـــ ٣٢)

٢- المرحلة الثانية: في حوانيت الوراقين

يذكر التّوحيدي في كتابيه (الامتاع والمؤانسة) و(البصائر والذخائر) كيف عمل في صغره بنسخ الكتب وبأجر زهيد "كنت أنسخ الكتب في زاوية لا أحد يكلمني، ولا أتحدث إلى أحد فجعلت الحرف صديقي" – (التوحيدي الامتاع والمؤانسة، جـــ ١، صـــ ١٤٤).

هذا العمل أتاح للتّوحيدي الاطلاع على تراث هائل من الكتب الفلسفيّة والأدبيّة، ومع شغفه للعلم وحبّه الفطري للتّعلّم تمكن من كسب حكمة واسعة جعلته عالما فيلسوفًا واسع المعرفة، ولكن من جهة أخرى كان العمل شاقا وكان وحيدًا فكيف لطفل أن يعيش بعيد عن أقرانه كالتّوحيدي؟ وهذا ما عزز شعوره بالغربة والخذلان، فيقول نقلا عن أبي عطية العطوي:

"لا تبك إثر مولٍ عنك منحرف تحت السّماء وتحت الأرض إبدال

النّاس أكثر من أن لا ترى حلمًا ممن زوى وجهه عن وجهك المال"
(محمد المعيد، شعراء بصريون، صـــ ١١٣)

لقد وجد التّوحيدي في كتبه أصدقاء أغنوه عن البشر فزاد علمه وتفوق بأعماله، ولكن دون أي تقدير، فانعكست غربته على أفكار وضاعت طفولته بين صفحات لا تسمع همس وحدته وكتب تشهد على مرارة أيامه، فيقول:-

"ألا إنّ إخوان الصّفا قليل فهل لي إلى ذاك القليل سبيل
قس النّاس تعرف غثّهم من سمينهم فكلّ عليه شاهدٌ ودليل"
(التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١١٣)

ويقول: "الصّديق هو النّفس لا يملّ، وهو ظل لا يزول، فكيف بي وأنا أطلبه في كلّ الوجوه ولا أجده"
(التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٢٠)

٣- المرحلة الثالثة: علاقته برجال الدّولة والوزراء

دخل التّوحيدي مجالس الوزراء رغبة منه في المكانة والمال مزودًا نفسه بعلمه وفلسفته فقصد ابن العميد (وهو أبو الفضل محمّد بن الحسين كان وزيرًا لركن الدولة البويهي وأديبا معروفا بثقافته) ولكن تظهر خيبة أمل ابن حيان حين يقول عنه: "كان يدعي محبّة العلم والعلماء، فإذا جلسنا إليه استخف بنا، وإذا فارقناه اغتابنا" (التّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، جـــ ١، صـــ١٠٤) فهو لم يجد في مجلسه ما كان يرنو من غنى ومكانة،

تكرر الأمر حين لجأ للصّاحب ابن عبيد (كان وزيرًا وكاتبًا لمؤيد الدّولة البويهي ومن أبرز علماء عصره) عامل التّوحيدي بفوقيّة و لم يدعمه، وعنه قال التّوحيدي: "ما أضيق المجلس إذا اتسع أهله وتعددت وجوه ثقافتهم وهذا الصّاحب إنّما هو من ذهب، وداخله من تراب" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٣٤)، وفي موضع أخر قال عنه: "خدمته بلساني وقلمي، فلم أجد منه إلا الترفع والازدراء." (التّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، جـــ ٢، صـــ ١٩٩)

وقال بالوزيرين:

"ويلقونني بالبشر ما دمت فيهم فإن غبت عنهم قطعوا الجلد بالسّب
وأغضي عن أشياء فيهم تريبني ولولا اصطباري فاض من عظمها قلبي"
التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ١٣٤)

أمام الاستهانة بعلم التّوحيدي من قبل رجال السّياسة ورموز تعتبر الواجهة الثّقافيّة لذاك العصر ، وأمام فشله في الحصول على مكانة علميّة مرموقة ترسخ شعور التّوحيدي باليأس من العلاقات الإنسانيّة خاصة ممن يتظاهرون بالمودّة فشبههم بالأشباح "أشبه الوزراء بالأشباح يسمعون ما يعجبهم ويتغافلون عن المظلوم" (التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صـــ ٨٨) لهذا كانت كتاباته في الصّداقة والصّديق شهادة شخصيّة أكثر من كونها تنظيرًا فلسفيا، وكأنّ الكتاب نافذة مشرعة في وجه السّلطة لترى أي جريمة ترتكب بحقّ أصحاب الفكر وليس نقدًا سياسيّا. ومن جهة أخرى معاملة الوزراء له ككاتب مأجور لا كصاحب فكر مستقل عمق شعوره بالخذلان، وقد شعر التّوحيدي أنّ صوته لا يجد اعترافا في ظل التّهميش الطّبقي خاصة أنّ أصحاب المراكز كانوا من المقربين من السّلطة. ومن ناحيّة نفسيّة، يظهر الكتاب أنّ التّوحيدي ضحية لبنية اجتماعية اقصائيّة وتعامل الوزراء معه اتسم بالاستغلال أكثر من الاعتراف الحقيقي بمكانته الفكرية.

٤- المرحلة الرّابعة: الفقر والجوع

تجربة الجوع، قد تكون من أصعب التّجارب الّتي مرّ بها التّوحيدي إذ أصبح الجوع صديقا له يلازمه لأيام، في ظل انهيار القيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة والدّينيّة، في الحديث الشريف عن أنس ابن مالك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما أمن من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه" (المعجم الكبير للطبراني: رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم الحديث ٧٥١٧)، ورغم ذلك يقول الحياني: "لقد قاسيت الجوع حتى أكلت أوراق البقل بعد أن يبست ومضغت قشور البطيخ اليابسة، وعصرت الماء من العشب اليابس" (التّوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، جـــ١، صـــ ١٠).

جوع جسدي جوع اجتماعي مشهد يعكس واقع الفلاسفة يحاورون العلم والفكر وأجسادهم تتضور جوعا، لتكون نصوص التّوحيدي شاهدة على هذه المفارقة، ولتضفي على مفهوم الصّداقة بعدا وجوديا، "إنّ الصّداقة تنكشف عن الجوع والبلاء، فما أكثر من يكثر لك السّلام ويقل لك الطّعام" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ١١٢)

الجوع هو الكفر الحقيقي والذّل الكبير لفيلسوف الوجوديّة الأوّل الّذي عاش وحيداً ومات وحيداً، كان يحلم بصديق يراه يسمعه يقدره فأخلص واجتهد تقدم وثابر، ولكن دون فائدة، هنا وأمام فقدان الأمن والأمان في بلاده وتنكر العالم له وصل للمرحلة التّالية في حياته وهي الأشد ايلاماً.

٥- المرحلة الخامسة: احراق الكتب اعلان خيانة الصّداقة

خيبات وخيبات مرارات متلاحقة ضيق العيش وقسوة الفقر، وعمر يمرّ دون فائدة، وضياع الثّقة بكلّ شيء تهميش من السّلطات يقول: "نبذتني الدّولة كما ينبذ العظم، وازدرتني الخاصة كما يزدرى الغبار" (التّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، صـــ١٠٣)، يقول الذّهبي: "تسول أخر حياته، و لم يعرف له بيت ولا زوج ولا تلميذ، وكان ينام حيثما وجده اللّيل" (الذّهبي، سيرة أعلام النبلاء، جـــ ١٧، صـــ ٢٧٨).

بعد أن ناهز التّوحيدي السّتين من عمره، أقدم على حرق كتبه تعبيرا عن إحساسه بعبثيّة الوجود ليصبح نموذجا للمثقف المنكسر فكان ما فعله برأي الطّرابيشي: "إنّ هذا الحرق كان رمزًا لليأس المطلق إذ لم يحرق الورق فقط، بل أحرق آخر صلته بالعالم" (الطرابيشي، من قتل التّوحيدي، صـــ ٢٩).

أمّا التّوحيدي فيقول: "لما رأيت أنّي عُنيت بما لا يجدي وشغلت، بما لا يحمد وندمت على ما فرطت فيه من العمر وحرمت ما كنت أرجوه من الآخر ورأيت الدّهر عليّ قد أجهد، والزّمان الّذي أُفسد جمعت كتبي وأحرقتها" (التّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، الليلة ٢٧)

هذا الحرق هو رمز لحرق المثقف في عصر حُورب فيه أصحاب الفكر والفلسفة، حرق لروح التّوحيدي الذي كان يرى كيف يحظى بالمكانة من هم دونه وينبذ هو، فكان الحرق ردّا على تهميشه واتهامه بالزّندقة من تلك السّلطات سعيًا منها لمنع العقل من الانتفاضة على فسادها.

حرق يعكس الحرق المادي وحرق الإنسانيّة فلا يد مدّت لإنقاذه ولا صديق رثا لحاله، إذ يقول: "لم أرَ في العالم صديقًا يُعنى على اصلاح غلطي ويكشف زللي ولا حميمًا

يفرح لي إذا جد جدي ويحزن لي إذا مسّني هم" (التّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، صـــ ٢٦٤).

*** الخلاصة**

تظهر سلسلة المحطات أن حياة التوحيدي منذ ولادته خسر أمه، وعاش طفولته منعزلا في الوراقين وكان شابا منسيا مهمشا، ومفكرا منبوذا وحيدا، وكهلا جائعا مهمل حتى موته.

كانت حياته مليئة بالخيبات، تلك الحياة جعلته يرى في الصّديق بلسما لجرحه الوجودي فقراءة الصّداقة والصّديق تكشف هذه المحطات في حياته وكأنّ الكتاب سيرة ذاتيّة للتّوحيدي وفلسفة وجودية تظهر رأيه بالصّداقة والصّديق، فيدرك القارئ أنّه أمام عرض ذاتي لقضية اجتماعيّة نفسيّة تحتاج لتدخل واعٍ من قبل الجميع لتقديم المساعدة خاصة في مواضيع غاية في الإنسانيّة كالجوع. والجوع يرتبط بالفقر والتّهميش ويعكس البنية الاقتصاديّة والسياسيّة والثّقافيّة في عصر التّوحيدي، ودليل على غياب العدالة الاجتماعيّة.

*** كتاب الصّداقة والصّديق بين الفلسفة والتّجربة الذّاتيّة**

يعد الكتاب من أهمّ الكتب التّراثيّة النّثريّة الإسلاميّة في القرن الرّابع الهجري، وعلى خلاف المؤلفات القديمة لا نجد في الكتاب تقسيما صارمًا يقسمه لفصول أو أجزاء، يتكون من مقدمة يخاطب بها الوزير ابن سعدان بعد أن سأله عن الصّديق، ثم سرد لتجاربه الشّخصيّة فهو لم يجد صديق.

فيه جمع لآراء الفكر الفلسفي اليوناني، وعرض التّجربة الذّاتيّة، إذ يقدم الكاتب تصورًا فلسفيًا للصّداقة مستندًا أحيانا للفكر اليوناني كما تصورها أفلاطون في (فيدوس والوليمة) فجلها أساسا للفضيلة منبعها المحبّة، وفكرته أنّ الصّداقة ركن أساسي للسّمو الرّوحي توحد النّفوس في سبيل الفضيلة والحب والخير.

أما أرسطو في كتابه (الأخلاق نيقوماخيّة) فيقسم الصّداقة (فيها اللّذة، المنفعة والفضيلة) فيردّ عليه التّوحيدي الصّداقة لا تدرك إلا بالتّجربة.

مع إشارات للفارابي في كتابه (آراء المدينة الفاضلة)، فالصّداقة عنده دعامة أخلاقية.

التوحيدي في جمعه لكلّ تلك الفلسفات أراد أن يكتب عن تجربته بنزعة وجدانيّة فهو لا يكتب عن الصّداقة كسمة عقليّة مجردة، هو يكتب بصيغة الأديب الفيلسوف وكأنّه سابق لعصره في حديثة عن البعد الوجداني للصّداقة فهو يرى الصّديق "ظل للرّوح" و"عزاء للإنسان في وحدته" غيابه يعني الانكسار النفسي والخذلان الاجتماعي" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١١٢)، هذه الرؤية جعلته يلتقي مع الفلاسفة الوجودين في العصر الحديث الّذين ركزوا على كون الحقيقة لا تدرك بالعقل وحدة بل بالتّعامل مع الحياة وخوض التّجارب الذّاتيّة، فقد أكد سورين كيركغارد على أنّ الإنسان لا يدرك الحقيقة بالعقل وحدة بل يختبرها في وجود ومعاناته وهو أمر ذكره فؤاد زكريا في دراسته حين قال: " كيركغارد هو أوّل من جعل الذّاتيّة معيارا للحقيقة فالإنسان يعيشها أكثر مما يعرفها" (زكريا الفيلسوف الوجودي كريغور، صـــ ٤٥).

هذا اللّقاء بين التّوحيدي وفلاسفة العصر الحديث نتج عنه تقديمه للصّداقة كتجربة وجدانيّة تتجاوز المفاهيم

الأخلاقيّة العليا في نظر من سبقوه من فلاسفة في اعتبار الصّداقة أساسا من أسس الإنسانيّة.

التّوحيدي في عرضه للفلسفة سواء اليونانية أو الإسلاميّة لم يكتف بذكر تلك الآراء أو اظهار مدى جماليتها، بل جعلها شاهدا على مفارقة اجتماعيّة نفسيّة أراد من ذلك الحديث عن ذاته وهذا ما عزز فلسفته الذّاتيّة الوجدانيّة.

التّوحيدي الّذي عانى من الفقد أراد صديق يعوضه فكانت عبارات الفلاسفة وأقوالهم في الصّداقة تشفي النّفس، ولكنّه كلّما نظر لحياته يصرخ جرحه في الفقد يقول: "ما أكثر من يظهر لك من أصدقاء حتى إذا اختبرته لم تجده، وما أقل من يثبت على العهد وإذا ابتليت" (التوحيدي، الصّداقة والصديق، صـــ ٣٥).

في الجوع يقول: " لقد بلغ بي الحال أني كنت أبيت طاويًا، وأصبح جائعًا، وأرى الأصدقاء لا يلتفتون إلي، ولا يسألون عن حالي" (نفس المصدر، صـــ ٥٢).

أما في التّهميش فقد قال "يلقونني في البشر ما دمت بينهم، فإذا ما غبت قطعوا الجلد بالسّب" (نفس المصدر، صـــ ١١٩)

الأمثلة تتكرر وتتنوع لتجعل من الكتاب شهادة وجوديّة تساند فلسفته، ومن خلال جمعه بين الفلسفة والسّرد الذّاتي يتبين أن الكتاب يمكن أن يقرأ بطريقة مختلفة أي كسيرة ذاتيّة غير مباشرة عن حياة التّوحيدي، وكأنّه تجربة مزدوجة من جهة يتحدث عن فلسفة أفلاطون وأرسطو والفارابي ومن جهة أخرى يغرق في ذاتيته فيكتب عن تجاربه ومعاناته وحلمه الدّائم بلقاء صديق رغم علاقاته المتوترة المعقدة مع العالم الخارجي واصطدامه بسلسلة من المواقف التي أبعدته عن الحياة الهادئة المطمئنة التي تشفيه من ألم الروح.

هذه الرؤية الجديدة الرؤية الرّوحيّة الوجوديّة تمنح الكتاب تميزا خاصا، وتقود إلى دراسات مغايره وقد تكون جديدة. فيمكن اعتبار هذا الكتاب سيرة ذاتيّة مضمرة للتوحيدي ومرآة فلسفيّة وجوديّة تحدث عنها فلاسفة القرن العشرين الّذين ربطوا القلق الإنساني بفكرة الوجود. ويمكن ربطه بالفلسفة الصّوفيّة التي تبحث عن الإتحاد مع الآخر في الكتاب تمثل الصّداقة الغائب المفقود صورة متخيلة للصّديق تقابل صورة مشوهة للصّديق في زمان التّوحيدي ورغم ذلك تبقى الصّداقة أمله المنشود الّذي يُصرع دائما أمام خيباته المتكررة. لهذا نجده شديد الحساسيّة ناقدًا ساخرًا علاقاته قصيرة المدى، قراراته متطرفة مثل احراق كتبه كفعل احتجاج على المجتمع الذي لم يعطه حقّه، وفي تفاعله مع المجتمع لم يتمكن من الصعود إلى مرتبة تليق بموهبته وعلمه فلجأ إلى العزلة لأنّ المجتمع لم يعطه موقعًا يتناسب مع عطائه.

الكتاب يعكس الصّراع بين المنطق والواقع في الوقت الّذي كان يبحث فيه التّوحيدي عن مكانة بين العلماء لم تمنح له حظوة التقرب من السّلطة العباسية وعانى من فوقيّة الوزراء فخيبته ما هو إلا حصيلة الذّات الناقدة الحساسة مع بنية اجتماعيّة سياسية لم تنصفه، وهذه الجدليّة بين التوحيدي والمجتمع تفسر الطّابع المأساوي لتجربته كما انعكست في الصّداقة والصّديق.

*** المقارنة والقراءات النّقديّة**

يعتبر كتاب الصّداقة والصّديق مزيج مميز يجمع بين نظريات فلسفيّة من عصور مختلفة، فهو يجمع بين الفلسفة اليونانيّة والإسلاميّة ويكشف عن فلسفة التّوحيدي الوجدانيّة، ولهذا وجب اجراء مقارنات بين فلسفة التّوحيدي وباقي الفلاسفة لتقيم الرّؤية النّقديّة وإبراز قيمته الفكريّة كأديب فيلسوف، من خلال توضيح مواضع الالتقاء بين التّوحيدي وباقي الفلاسفة ومواضع الاختلاف وما يميز فلسفته بشكل خاص.

*** مقارنة بين الفلاسفة**

فكرة الصّداقة شغلت الفكر الفلسفي تناولها أفلاطون في (الوليمة) فاعتبر "الصّداقة منظور مثالي يجعلها سلمًا نحو الخير والجمال المطلق" (أفلاطون، الوليمة، صـــ٨٥)، أما أرسطو تناولها من زاوية أخلاقيّة – مدنيّة فهي الأساس للسّعادة، ثم الفارابي في كتابه (آراء المدينة الفاضلة) اعتبرها ركيزة من ركائز المدينة أما أبو حيان التّوحيدي فقد كانت الصّداقة بالنّسبة إليه تجربة مليئة بألم الخذلان مليئة بالوحدة والعزلة لهذا في تصوره عن فكرة الصّداقة ظهرت مفارقات كبيرة بين الفكرة الفلسفيّة والواقع الحقيقي.

لهذا فإن المقارنة تكشف مفارقة كبيرة بين المثاليّة اليونانيّة، والصّداقة كبناء أخلاقي وسياسي في الإسلام، والصّداقة عند التّوحيدي رحلة فقد ووحدة وضياع.

*** مقارنة نقديّة**

*** التّوحيدي وأفلاطون**

يتفقان على أن الصّداقة رابطة تتجاوز المنفعة الماديّة لتصبح تعبيرا عن قيمة روحيّة، يقول أفلاطون: "الصّداقة الحقيقية لا تنشأ إلا بين الأرواح الطّاهرة وهي تقوم على الفضيلة والحبّ." (التوحيدي، الصداقة والصديق، صـــ ٥٥)، ويقول التوحيدي: "إنّ في حديث الصّداقة شفاء للصّدر وراحة للنّفس ورياضة للعقل" (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٤٢). ويقول: "الصديق عند قوم روح تعانق روحًا، ونفس تصفو لنفس" (نفس المصدر،٩٢)

يختلفان أفلاطون جعل الصّداقة طريق للارتقاء نحو الجمال الحب الخير، يركز على السّمو الفكري "لا صداقة إلا بالاتفاق في العقل والعمل" ، (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ٦١)، "روح واحدة في جسدين" (نفس المصدر، صـــ ٥٨) التّصور الفكري المثالي للصّداقة عند أفلاطون وجعله الصّديق صورة للذّات مرتبط بالكمال العقلي، اصطدم بواقع التّوحيدي فهو لا يؤمن بديمومة الصّداقة، فهي علاقة واهيّة تسقط أمام أوّل اختبار لتكشف عن زيفها فهي ليست ارتقاء نحو الجمال أو ارتقاء للخير بل خذلان متكرر ومرارة لا يمكن نسيانها، يقول: "ما أكثر من يظهر لك الوداد ـــ حتى إذا احتجت إليه جهل مكانك، وتبرأ من صحبتك، وجحد ما تقدم من معرفتك" (التوحيدي، الصّداقة والصديق، صـــ ١٠٤).

*** التوحيدي وأرسطو**

يتفق الفيلسوفان على أنّ الصّداقة الحقيقيّة تقوم على الفضيلة لا المنفعة، وعلى كونها ضرورة للإنسان، وكونها علاقة تبادليّة تقوم على التّكافؤ، عند أرسطو يقسم الصّداقة ثلاثة أقسام: صداقة المنفعة، وصداقة اللّذة، وصداقة الفضيلة والأهم صداقة الفضيلة، "الصّداقة الحقيقيّة لا تكون إلا بين الأنداء في الفضيلة وإذا اختلت الفضيلة اختلت الصّداقة" (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ٦٢) ، التّوحيدي يؤكد على المعيار الأخلاقي ويربط ثبات الصّداقة بين الأصدقاء بمستوى الفضيلة إذ يقول: "الصّداقة إذا كانت على غير فضيلة فصفاؤها كدر، وصلاحها خلل، ثباتها زوال" (نفس المصدر، صـــ١٠٣) ، ويركز أرسطو على ضرورة الصّداقة للإنسان فالإنسان لا يستطيع أن يعيش حياة جيدة بلا صديق "الصّديق نفس واحدة في جسدين" (نفس المصدر، صـــ ١٢) وهذا ما أكده التّوحيدي بقوله: "من لا صديق له فحياته جفاء، ومعيشته شقاء" (نفس المصدر، صـــ١٤٢) هذه العبارة تجمع بين الفلسفة والواقع النّفسي الّذي سيطر على رأي التوحيدي الّذي ينشد المساواة في المعاملة لنيل الحقوق والتكافؤ الاجتماعي ضروري فكما ناشد أرسطو المساواة في الفضيلة طالب التوحيدي بضرورة المساواة في الحقوق " الصّداقة لا تتمّ بين اثنين في جوهرهما، إلا إذا استويا في النّفس، وتقاربا في الخلق، وتعاونا على العدل".

يختلف الفيلسوفان، التفاؤل الأرسطي في الصّداقة والفضيلة يقابله تشاؤم التّوحيدي الّذي عانى من مرارة الواقع وخذلان الأصدقاء فالصّديق الحقيقي مستحيل وجوده "أعلم أني قد فتشت النّاس، وطال اختباري لهم، فوجدت أكثرهم يظهر لك المودّة حتى إذا جاءت وقت الحاجة اختفى" (نفس المصدر، صـــ١٠٤). كما أنّ أرسطو يبني تصوّرًا منطقيًا للصّداقة في إطار المجتمع والسّلوك الأخلاقي ورغم ندرة الأصدقاء إلا أنهم موجودون كل ذلك في فلسفته المستندة للعقل أما التّوحيدي فدائما يغذي أفكاره حول الصّداقة بالخيبة والخذلان فهو لا ينظر للصّداقة كفكرة فلسفيّة مجردة، بل يظهر كمن يبحث عن الصّديق في كل مكان فلا يعثر عليه. وما الصّداقة بنظره سوى خداع اجتماعي مهما حاول الإنسان التّمسك بأحد حتى تنكشف حقيقته هذه الرؤية السّوداويّة لا نراها عند أرسطو. لذلك حين يكتب أرسطو عن الصّداقة فهو يكتب ضمن منهج فلسفي فهو يعرف الفلسفة ضمن القيم الأخلاقيّة ويقدم أنواعها والغاية منها بأسلوب منطقي منظم أمّا الحياني فيكتب عن الصّداقة التي عاهدها في حياته لتظهر شخصيّته المعذبة والانكسارات الّتي تعرض لها، مما يجعل رؤيته متعلقة بمزاجه المتقلب وذاتيته المجروحة.

من هنا ندرك أنّ التّوحيدي وأرسطو التقيا في المرتكزات الفلسفيّة الأساسيّة للصّداقة مثل ضرورتها للإنسان وربطها بالفضيلة، ولكنهما يختلفان في كون التّوحيدي يكتب من عمق تجاربه فيغرق في الفلسفة الذّاتيّة ويظهر متشائما ثائرًا على أي معنى جمالي للصّداقة، وكأنها سراب يمكن تخيله ولا يمكن الوصول إليه بينما معالجة أرسطو لمفهوم الصّداقة معالجة عقليّة، كما أنّ أرسطو لم ييأس من أمكانية الحصول على صديق بينما التّوحيدي يراها قيمة منقرضة في زمن انحطاط

القيم في مجتمع لم ينصفه وأقصاه ثقافيا واجتماعيا فعاش مهمشا ومات وحيداً.

*** التّوحيدي والفارابي**

في لقاء الفلاسفة الإسلاميين تقاطع بين الفلسفة والتّجربة، فيهما ثقافة متقاربة وقيم مشتركة لعصر عاشه الفيلسوفان بكلّ تفاصيله من اضطرابات وتوترات، ولكن كلّ منهما سلك طريق المعرفة بأسلوبه.

يتفق الفيلسوفان في اعتبار الصّداقة فضيلة إنسانيّة ضروريّة لبناء الإنسان والمجتمع ولا يمكن لهذه الفضيلة من الاستمرار إلا إذا تمتع الإنسان بنقاء وتمسك بقيمه الأخلاقيّة، فالصّداقة الحقيقيّة لا تنشأ إلا بين الفضلاء " الّذين يتحابون على الفضيلة هم أهمّ أنواع الأصدقاء" (الفارابي، أهل المدينة الفاضلة، صـــ ١١٦). يؤيد التّوحيدي ذلك لكن بأسلوبه النّقدي "الصّداقة إذا لم تبنَ على ضرورة فضيلة خالصة، كانت غروراً، وسراباً، ومصيدة" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١٠٣) كما يشتركان بضرورة الصّديق الّذي يتحمل أعباء الحياة، فلا يمكن للإنسان أن يكون وحيداً، وكأنّ الصّداقة قيمة ضرورية لبناء الإنسان، يقول الفارابي: "الصّديق هو الّذي يعين على نيل الكمالات، لا على العيش فقط" (التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص،١٠٢)، ويقول التّوحيدي: "فساد الصّداقة فساد للإنسان" (نفس المصدر، صـــ١٣٩).

يختلف الفيلسوفان، مرة أخرى الفارق بين التّوحيدي والفارابي يكمن في رؤية التّوحيدي لمفهوم الصّداقة فبينما ينطلق الفارابي من تفكير فلسفي عقلاني يتحدث عن الصّداقة المفترضة بين النّاس لضرورتها في بناء الإنسان والإنسان هو ركيزة المجتمع الحقيقي من خلاله ترسى أهمّ قواعد الفضيلة حتى نصل للمدينة الفاضلة، وهو يؤمن بتحقيق هذه الأهداف، وبالتّالي الصّداقة قيمة موجودة بين النّاس.

أمّا التّوحيدي فينطلق من عمق الألم والتّجربة المؤلمة الّتي عاشها في زمن الخيانة والتّضعضع الاجتماعي والسّياسي وما يكتبه وما نقمته وحدته وتطرفه إلا انعكاس للمشاعر المكبوتة في أعماقه. مشاعر اليتم والحاجة لحضن الأم، مشاعر إنسان خسر طفولته في حوانيت الوراقين، فيقول: "أين الصّديق في هذا الزّمان؟ لقد عدمته في وجوه الحكماء، وخنقني فقده في أحضان الأقرباء" (التّوحيدي، الصّداقة والصّديق، صـــ ١١٢). كما أنّ الفارابي يرى أنّ الصّداقة مشروع إنساني لبناء المدينة الفاضلة من الواضح هنا تأثره بالفلسفة اليونانيّة، كذلك يعتبر التّوحيدي أن البحث عن صديق ضروري لحمايته من ضياعه في عالم ملئ بالوحدة وتعويض عن كلّ الخسارات الّتي عاشها لتصبح ملجأه.

مفارقة مليئة بالأسى يشعر بها مفكر رأى الفلسفة بنظرة الفلاسفة المثاليين واعترافاته الوجودية تعمق شعور التّوحيدي بالغربة وتضعه في مكانة مختلفة بين الفلاسفة فلا هو مؤمن بنظرتهم فيحاول تطويرها ولا قادر على العيش بلا صديق وفي.

فلسفته لهاث يصل حدّ الرجاء والتّوسل فكتابه تجاوز حدّ التّصورات المثاليّة إلى طريق جديد ومختلف فيه تجريد للواقع من أبواق المثاليّة وأقنعة الكذب.

ليظهر التّوحيدي كفيلسوف للخذلان والغياب ويبقى الفارابي فيلسوف المثل العليا.

هذه المفارقة بين الفيلسوفين بين صوت المثل وصوت الواقع تفتح الباب لفهم الصّداقة ليس كمفهوم أخلاقي، بل مفارقة تعكس الصّراع بين الأخلاق والسّياسة، بين العقل والعاطفة بين المثل العليا والواقع.

*** قيمة المقارنة**

تكمن قيمة المقارنة في الكشف عن تعدديّة الأبعاد لقيمة أو لمصطلح واحد كالصّداقة هنا تقاطع بين الفلسفة الفكريّة والتّجربة الإنسانيّة.

تكمن في تحول الصّداقة من مشروع لبناء المدينة الفاضلة لصوت أنين وصرخة جائع ونداء طفل ومنفى أديب.

تكمن في تبجيل الصّداقة كقيمة مثلى فيها من القيم والكرامة ما يوجب الإجلال غايتها بناء الإنسان لتصبح رمزاً لاحتراق روح الإنسان.

*** الخاتمة**

لقد سعى هذا البحث لإعادة قراءة نص تراثي (الصّداقة والصديق) لأبي حيان التوحيدي، لاكتشاف مفهوم الصّداقة برؤى مختلفة إحداها رأت الصّداقة كمفهوم فلسفي ناقشه الفلاسفة اليونانيون والإسلاميون وفلاسفة العصر الحديث والثّانية الصّداقة بنظرة التّوحيدي نظرة فلسفيّة وجدانيّة تجريبيّة، وقد شكل هذا الكتاب نقطة التقاء الفلسفة العقليّة بالبوح الذّاتي العميق إذ يسلط الضوء على التّوتر بين المثل والخذلان الواقعي، في حواريّة نقديّة بين التوحيدي، والفارابي، وأفلاطون، وأرسطو.

هذه الدّراسة كشفت النّقاب عن فلسفة التّوحيدي ورؤيته في حقيقة الصّداقة، فهو يعيد كتابه سيرة حياته بكلّ ما فيها من فقد لحب الأم وحرمان من بيت عائلي دافئ وآمال طفل خسر طفولته وفيلسوف لم يحظ بمكانة تليق به، التّوحيدي أنسن الصّداقة بطريقة قلبت كل المفاهيم العقليّة فانقلبت الصّداقة من مجرد فضيلة عقلية إلى ساحة صراع الذّات مع الغياب والخذلان، لتكشف المفارقات المتلاحقة عن الهوة بين المثل العليا الّتي تمسك الفلاسفة حين رأوا فيها بابا يوصل للفضيلة وبين ادراك التّوحيدي لواقعه، فهو يعيد المساءلة في هذه المسلمات من عمق تجربته ويكشف الأقنعة عن حقيقة الإنسان فلا صديق سانده أو وزير دافع عنه فتحولت حياته لريشة في مهب الريح.

وقد أظهرت المقارنات النّقديّة أنّ التّوحيدي يتفق مع الفلاسفة في الأسس النّظرية للصّداقة يؤمن بأهميتها فهي قيمة ساميّة تعين الإنسان في رحلة حياته، لكنّه تميز عنهم بموقفه الوجداني التّأملي فهو لا يريد أن يعيش المثل الاجتماعيّة والسّياسيّة ولا التّوهم والتّمسك بمسلمات الفلاسفة، بل يصبغ فلسفته بتجربته لتهتز تحت وطأة ألم أسئلته أين الصّديق لماذا لا أجده؟ لتظهر قيمة التّوحيدي فهو لم يكن مجرد فيلسوف مثقف يعيد صياغة ما قاله الأقدمون، بل هو فيلسوف مجدد يعرض فلسفة تعتمد على المكاشفة والنّزول من عالم الأبراح العاجيّة إلى عالم الإنسان وكأنه صوت الماضي يخاطب فلاسفة الوجوديّة والوجدانيّة في العصر الحديث.

وقد ظهر أنّ الكتاب لا يدرج كعمل تراثي أدبي فقط، بل يمكن اعتباره عملًا هجينا يجمع بين السّير الذاتيّة

والفلسفة والأخلاق والتّصوف، يمكن تحويله من نصّ أخلاقي إلى سيرة ذاتية وجدانيّة،

هو كتاب كتبه إنسان خانته الحياة فأنصفته كتبه، إنسان بحث عن القيم والمبادئ في عصر تعري الأخلاق وهجر المفكرين فأخفقت المدينة الفاضلة عن احتوائه.

من هنا فإن هذا الكتاب يستحق الدّراسة والتّوسع وإعادة البحث في فلسفته الإنسانية وجوانبه النّفسيّة علّنا نهدهد سرير الطفل الذي حُرم أمّه ونعيد اللّعبة لطفل سُلبت منه طفولته، ونقدر عالما لعلمه ونحتضن مسنًا جائعا ونأوي ذاك التّائه في مجاهل الأيام.

*** المراجع**

أفلاطون، فيدروس، ترجمة يوسف كرم، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٧.

أفلاطون، الوليمة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.

بدوي عبد الرحمن. سورين كيركغارد فيلسوف القلق والحرية. الكويت: وكالة المطبوعات،١٩٧٣.

التّوحيدي أبو حيان. الإشارات الإلاهيّة، تحقيق: حسن السّندوسي. القاهرة: المطبعة السّلفية، ١٩٢٨.

التّوحيدي أبو حيان. الامتاع والمؤانسة. تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزّين، القاهرة: دار الكتب، ١٩٦٥.

التوحيدي أبو حيان. البصائر والذّخائر. تحقيق: وديع فلسطين. بيروت: دار الصّادر، ١٩٧٠

التّوحيدي أبو حيان. الصّداقة والصّديق تحقيق: أحمد أمين وأحمد زين. القاهرة: لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، ط ١، ١٩٣٣.

التّوحيدي أبو حيان. الهوامل والشّوامل (أسئلة وأجوبة مع مسكويه). تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزّين. القاهرة: لجنة التّأليف والتّرجمة،١٩٥١.

الحموي ياقوت. معجم الأدباء.، جـ ٣، بيروت: دار العرب الإسلامي، ١٩٩٦.

الذّهبي شمس الدين. سيرة أعلام النّبلاء جـ ١٧، طـ٩، بيروت: مؤسسة الرّسالة، ١٩٩٣.

زكريا فؤاد، الفيلسوف الوجودي كريغور، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٣.

زكريا فؤاد، التّفكير الفلسفي عند اليونان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

الطبري سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣.

الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١.

الفارابي أبو النصر. آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق: البير ناصح البستاني، دار المشرق بيروت، ١٩٨٦.

الفارابي أبو النصر، تحصيل السّعادة، تحقيق جعفر ال ياسين، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٣

طرابيش جورج. أبو حيان التّوحيدي، الفيلسوف البوهيمي، بيروت: دار الطليعة، طـ ١، ٢٠٠٦.

طرابيشي جورج. من قتل أبو حيان التّوحيدي؟ بيروت: دار السّاقي، ٢٠٠٦.

طرابيشي جورج. هرطقات، بيروت دار السّاقي، ٢٠٠٦.

عبد الغني محمّد. أبو حيان التّوحيدي حياته وأثاره، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤.

الغزالي أبو حامد بن محمّد، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، بيروت: دار الأفاق الجديدة، ١٩٨١.

الكيلاني ابراهيم، علم الاجتماع الأدبي. دمشق: دار الفكر، طـــ ٣، ١٩٨٦

المعيد محمد جبار. شعراء بصريون من القرن الثّالث الهجري، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧.

مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق قسطنطين زريق، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣.